الحافظ ابن كثير

وآثاره العلمية

بقلم

المحاضر/ سليمان بن ابراهيم اللاحم

كلية الشريعة وأصول الدين

تمهيـــد :

فى الأحوال السياسية والاجتماعية والعلمية فى عصره

لقد عاش الحافظ ابن كثير فى غضون الثلاثة الأرباع الأولى من القرن الثامن الهجرى، فى ظل دولة المماليك، التى كانت تحكم مصر والشام، حيث كان الحاكم يقيم فى مصر وينيب عنه حاكما فى الشام. وقد كانت هذه الفترة امتدادا لأحداث عظيمة ونكبات شديدة مرت على العالم الإسلامى، منها الحروب الصليبية التى ظلت طيلة مائتى سنة وذلك من سنة ٤٩٠ هـ وحتى سنة ٦٩٠ هـ .

ومنها الحادث الأليم الذى زلزل كيان العالم الإسلامى، وهو هجوم التتار على البلاد الإسلامية، وسقوط بغداد فى أيديهم سنة ٦٥٦ هـ ، والقضاء على الخلافة الإسلامية، وقتل الخليفة المستعصم بالله، وإراقة الدماء البريئة، وقتل الفقهاء والأعيان، واستمرار القتل والنهب والسبى فى بغداد بضعة وثلاثين يوما، وقد ذهب ضحية هذا الحادث كثير من الأرواح والأموال.

ومنها النزاع بين السلاطين على السلطنة، مما سبب خلع الكثير منهم وقتله أو اعتقاله، فلا يكاد يصل الواحد منهم إلى السلطنة حتى تحدق به كل هذه الأخطار.

وقد كان للخلافات المذهبية بين أهل السنة والرافضة سبب فى هذا الإضطراب السياسى.

وقد أدى اضطراب الأحوال السياسية إلى سوء الحالة الإجتماعية، فحصل كثير من المجاعات بسبب الاحتكار وعدم استقرار الحياة، كما أدى ذلك إلى انتشار كثير من الأوبئة وكثرة الوفيات.

ومع ما كانت عليه هذه الفترة من اضطراب الأحوال السياسية، وتدهور الأحوال الاجتماعية، فقد سادها نشاط علمى كبير، وقد تمثل هذا النشاط بكثرة دور التعليم التى شملت كثيرا من المساجد والمدارس والخوانق فى مصر والشام، وبكثرة المؤلفات فى سائر العلوم، وتعدد

المجتهدين والحفاظ الذين برزوا فى كثير من العلوم كشيخ الإسلام ابن تيمية والحافظين المزى والذهبى والعلامة ابن القيم والحافظ ابن كثير وغيرهم. وقد امتازت هذه الفترة بحرية الفكر والبحث العلمى، وبالقيمة الرفيعة والمنزلة العالية التى يحتلها العلماء بين العامة والخاصة على حد سواء، وكان جل اهتمام العلماء فى هذا العصر الانصراف إلى الإفادة من كتب الأقدمين، ودراستها ونقدها وتخريج أحاديثها واختصارها أو المقارنة والموازنة بينها، بمعنى أن اهتمامهم منصرف فى الغالب إلى النقل والتقليد دون الابتكار والتجديد، وهو منصرف أيضا فى الغالب إلى علوم الدين واللغة، وقد كان طبيعيا أن تنصرف دراسة الحافظ ابن كثير إلى هذه العلوم، وأن تكون وفق ما كان معهودا فى عصره، وهو دراسة كتب الأقدمين ونقدها، لكن من يقرأ فى كتب الحافظ ابن كثير فى التفسير والحديث والتاريخ والفقه وغير ذلك يجد أنه صاحب مبدأ وعقيدة يتمسك بها ويدعو إليها ويدافع عنها، كما أنه صاحب هدف واضح جلى فى جميع مؤلفاته.

نسبه ومولده ونشأته :

هو الإمام الحافظ الحجة المحدث المؤرخ المفسر الفقيه ذو الفضائل عماد الدين أبوالفداء اسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير بن زرع القيسى، القرشى النسب، البصروى الأصل، الدمشقى النشأة والتربية والتعليم، الشافعى المذهب.

ولد ـ رحمه الله ـ بقرية «مَجْدِل» من أعمال مدينة «بُصرَى» ـ بلد بالشام من أعمال «دمشق» ـ وكان أبوه من أهل «بصرى» وأمه من قرية «مجدل».

واختلف المترجمون له فى سنة مولده، وكل هذه الأقوال تتراوح بين سنة سبعمائة ٧٠٠ هـ وإحدى وسبعمائة ٧٠١ هـ ، قال الذهبى: «ولد بعد السبعمائة أو فيها» وقال الحسينى: ولد سنة ٧٠١ هـ». وقال ابن حجر: «ولد سنة ٧٠٠ هـ أو بعدها بيسير». وقال السيوطى: «ولد سنة ٧٠٠ هـ».

قال الشيخ أحمد شاكر ـ بعد ما أشار إلى قول الحافظ ابن حجر المتقدم: «وهو تاريخ تقريبى أُرجح أنه مستنبط من كلامه فى ترجمة أبيه، حيث ذكر أن أباه توفى سنة ٧٠٣ هـ قال: وكنت إذ ذاك صغيرا ابن ثلاث سنين أو نحوها، لا أدركه إلا كالحلم، ثم قال: وابن ثلاث سنين

لا يعرف تاريخ السنين ـ على اليقين ـ فى تلك السن، فقد سمع إذن تحديد السنة التى مات فيها أبوه ممن حوله من اخوة أو أهل أو جيران، ولكنه يدرك أباه «كالحلم» فالذى هو فى سن أقل من الثلاث ما أظنه يذكر شيئا «كالحلم» ولا أبعد من الحلم ولا أقرب، فهو حين موت أبيه قد جاوز الثالثة فى أكبر ظنى ـ ولذلك أرجح أن مولده كان فى سنة «٧٠٠» هـ ، أو قبلها بقليل، وهو أقرب إلى الصحة من قول الحافظ ابن حجر «أو بعدها بقليل» لأن الذى بعدها لا يكاد يبلغ الثالثة عند موت أبيه»

حياتـه العلميـة

طلبه العلم وشيوخه :

كانت دراسة الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ متجهة كما أشرت سابقاً إلى علوم الدين واللغة العربية، حيث كانت هذه هى الوجهة الغالبة فى عصره، وقد بدأ فى الاشتغال بالعلم على يدى أخيه عبدالوهاب ـ واجتهد فى تحصيل العلوم على كبار العلماء فى عصره، وقد حفظ القرآن فى سن مبكرة، كما ذكر ذلك فى تاريخه حيث قال فى ذكره وفاة الشيخ نور الدين على بن أبى الهيجاء الكركى الشوبكى قال: «كان معنا فى المقرى والكتاب، وختمت أنا وهو فى سنة إحدى عشرة».

وقرأ بالقراءات حتى اعتبره الداودى من القراء فترجم له فى طبقات القراء.

سمع صحيح مسلم فى تسعة مجالس بقراءة محمد بن محمد بن سهل بن محمد الأزدى الغرناطى الأندلسى المتوفى سنة ٧٣٠ هـ على الشيخ نجم الدين بن العسقلانى.

وسمع الموطأ وغيره، وقرأ «تهذيب الكمال» للمزّى فى تاريخ الرجال، وحفظ «التنبيه» للشيرازى، فى فروع الفقه الشافعى، و «مختصر ابن الحاجب» فى الأصول، وبرع فى الحديث والتفسير والتاريخ والفقه والأصول والنحو، ودرس الحساب، وقد منحه الله حافظة قوية وفهما ثاقبا وعلما جما وإطلاعا واسعا شهد له بذلك شيوخه وتلاميذه.

وفيما يلى بيان لبعض شيوخه الذين اشتهر أخذه عنهم وتأثره بهم:

منهم : شيخ الإسلام ابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ هـ ، وقد لازمه وتخرج على يديه، وكانت له به خصوصية ومناضلة عنه، واتباع له فى كثير من آرائه، وقد تأثر به وكان يفتى برأيه فى مسألة الطلاق وامتحن بسبب ذلك وأوذى، ويعتبر صاحبه فى الروح والعقيدة والمذهب السلفى، وقد استفاد كثيرا منه ومن آثاره فى جميع مؤلفاته وخصوصا التفسير

ومنهم : ابن الدواليبى البغدادى عفيف الدين أبو عبدالله محمد بن عبدالمحسن الحنبلى، له إجازات عالية، قال الحافظ ابن كثير: «وقد أجازنى فيمن أجاز من مشائخ بغداد ولله الحمد» توفى سنة ٧٢٨.

ومنهم : الشيخ المفتى برهان الدين أبو اسحاق ابراهيم بن الشيخ تاج الدين الفزارى، الشهير بابن الفركاح، المتوفى سنة ٧٢٩ هـ وقد تفقه عليه، وسمع عليه صحيح مسلم وغيره كما ذكر ذلك الحافظ ابن كثير فى ترجمته، وقد أثنى عليه أيضاً فقال قبل نهاية الكلام عنه «وبالجملة فلم أر شافعيا من مشايخنا مثله وكان حسن الشكل عليه البهاء والجلالة والوقار.

ومنهم : شيخه الكبير : أحمد بن أبى طالب المعمّر الرحلة شهاب الدين الحجّار أبوالعباس المعروف بابن الشحنة المتوفى سنة ٧٣٠ هـ ، قال فى ترجمته: «سمعنا عليه بدار الحديث الأشرفية فى أيام الشتويات نحواً من خمسمائة جزء بالاجازات والسماع».

ومنهم : شمس الدين أبو عبدالله محمد بن الشيخ الصالح العابد شرف الدين أبوالحسن بن حسين بن غيلان البعلبكى الحنبلى المتوفى سنة ٧٣٠ هـ قال: «وعليه ختمت القرآن فى سنة إحدى عشرة وسبعمائة».

ومنهم : شيخه الحافظ الكبير ، أبو الحجاج جمال الدين يوسف المزى المتوفى سنة ٧٤٢ هـ صاحب «تهذيب الكمال» و «أطراف الكتب الستة» وقد لازمه، وقرأ عليه مؤلفه العظيم فى الرجال «تهذيب الكمال»، وقد تزوج ابنته زينب، كما ذكر ذلك فى تاريخه.

ومنهم شيخه الحافظ المؤرخ أبوعبدالله شمس الدين الذهبى محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز المتوفى سنة ٧٤٨ هـ فقد قرأ عليه، ونقل شيئا من كلامه على بعض الأحاديث فى التفسير، كما نقل عنه فى كتابه «البداية والنهاية»، وفى علوم الحديث وفى كثير من مؤلفاته.

تأثـــره بهـــم :

أما تأثره بهم فيبدو واضحا تماما، خصوصا من لازمهم وأعجب بهم. فقد تأثر بشيخه ابن تيمية فى عقيدته السلفية، وآرائه المستقلة وشخصيته الواضحة.

كما تأثر بالحافظين المزى والذهبى وغيرهما من شيوخه فى الحديث، حيث غلب الحديث وعلومه على ثقافته، فمع أنه اشتهر فى التفسير والتاريخ والفقه والأصول وغير ذلك، فان شهرته فى هذه العلوم ترجع غالبا إلى بروزه فى نقد الأسانيد ومتون الأحاديث والآثار والأخبار، وتحقيق القول فيها صحة وضعفا، مما جعل مؤلفاته تحظى بالدرجة الأولى بين سائر المؤلفات.

بيان المدارس التى تولاها وذكر أشهر تلاميذه :

لقد شارك الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ فى الحياة الاجتماعية ، وكان مرجعا فى الفتوى لدى السلاطين، ولدى خاصة الناس وعامتهم لدينه وورعه وعلمه وتواضعه، وقد تولى التدريس فى عدة مدارس من أشهرها:

المدرسة النجيبية : وهذه المدرسة بناها الأمير الكبير آقوس النجيبى وهى مدرسة للفقه الشافعى، وقد أسندت إليه سنة ٧٣٦ هـ .

تربة أم الصالح : وهى دار حديث وقرآن، تولى التدريس فيها بعد موت شيخه الحافظ الذهبى.

مدرسة دار الحديث الأشرفية : وهى كبرى مدارس الحديث بدمشق، بناها الملك الأشرف موسى ابن الملك العادل، افتتحت ليلة النصف من شعبان سنة ٦٣٠ هـ وقد تولاها بعد موت تقى الدين السبكى ولم يستمر بها طويلا.

التنكزية : وهى دار حديث وقرآن، بناها الأمير سيف الدين تنكز نائب الشام، وقد بدئ ببنائها سنة ٧٢٨ هـ ، وقد تولاها بعد موت شيخه الذهبى أيضا.
وهو أول من خطب بجامع الفوقانى سنة ٧٤٨ هـ . وله درس تفسير بالجامع الأموى .

ونظرا لتعدد المناصب التعليمية التى تولاها الحافظ ابن كثير فانه ليس من السهل حصر تلاميذه

الذين تلقوا علومهم عليه، وسأكتفى بذكر المشهورين منهم، وهم كما يلى: -

- أبو المحاسن الدمشقى الشريف محمد بن على بن الحسن بن حمزة بن أبى المحاسن الدمشقى، وهو المشهور بالحسينى، ولد سنة ٧١٥ هـ . وتوفى سنة ٧٦٥ هـ .
- الإمام بدر الدين محمد بن عبدالله بن بهادر الزركشى، وقد تتلمذ للحافظ ابن كثير وتلقى عنه الحديث بدمشق، وهو صاحب كتاب «البرهان فى علوم القرآن» ولد سنة ٧٤٥ هـ وتوفى سنة ٧٩٤ هـ .

- أبو جعفر بن عنقة اليشكرى، حمل عن ابن كثير وعن غيره، توفى سنة ٨٠٤ هـ .

- سعد الدين سعد بن يوسف بن اسماعيل النووى الشافعى، أخذ عنه وقرأ عليه فى علم الحديث، توفى سنة ٨٠٥ هـ .

- الحافظ الكبير زين الدين العراقى عبدالرحيم بن الحسين بن عبدالرحمن الكردى، الشهير بالعراقى الشافعى، ولد سنة ٧٢٥ هـ وقد شهد له بالفضل والمعرفة كثير من العلماء منهم ابن كثير، توفى سنة ٨٠٦ هـ .

- شهاب الدين أحمد بن محمد الدمشقى المعروف بالسلاوى الشافعى، سمع من ابن كثير وابن رافع وغيرهما، توفى سنة ٨١٣ هـ .

- العلامة أحمد بن علاء الدين بن حجى بن موسى بن أحمد الدمشقى الشافعى الحافظ ، مؤرخ الإسلام، تخرج على الحافظ ابن كثير وابن رافع فى علوم الحديث، وقد لازم الحافظ ابن كثير ست سنين واستفاد منه الكثير، وله عدة مؤلفات منها ذيل على تاريخ ابن كثير، توفى سنة ٨١٨ هـ .

- أبو زرعة العراقى أحمد بن الحسين بن عبدالرحمن العراقى الشافعى، ولد سنة ٧٦٢ هـ وتوفى سنة ٨٦٢ هـ .

- ابن الجزرى المقرى : محمد بن محمد بن محمد بن على بن يوسف، المعروف بابن الجزرى، الشافعى، ولد سنة ٧٥١ هـ وسمع من كثير من العلماء منهم ابن كثير توفى سنة ٨٣٣ هـ .

مذهبه فى العقيدة

يعتبر الحافظ ابن كثير سلفى العقيدة، يظهر ذلك من خلال تمسكه بعقيدة السلف وتقريره لها فى مؤلفاته، وخصوصا التفسير، حيث نجد أنه فى تفسيره لآيات العقائد والأسماء والصفات يقرر أصول العقيدة الإسلامية الستة، كما هو معتقد أهل السنة والسلف الصالح، وهى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشره.

وحيث إن الإيمان بالله يتضمن الإيمان بوجوده وانفراده بالربوبية والعبودية، واتصافه بالكمال المطلق من جميع الوجوه فقد قرر الحافظ ابن كثير هذا كله فى كلامه على الآيات المتعلقة بالتوحيد وأنواعه، توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات.

كما قرر عقيدة السلف بوجوب الإيمان بجميع الأمور الغيبية التى أخبر عنها القرآن والسنة كوجود النار وعذاب القبر وثبوت رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة، وغير ذلك مما يجب الإيمان به من أمور الغيب.

وكما قرر عقيدة السلف فقد ذب ودافع عنها، وذاد عن حياضها، ورد على طوائف البدع والضلال من الدهريين والمشركين والمعتزلة والشيعة والخوارج وغيرهم.

وهذا كله يدل على شدة تمسكه بعقيدة السلف الصالح رضوان الله عليهم، إيمانا بها ودفاعا عنها وردا على مخالفيها؛ وتفسيره من أوله إلى آخره أكبر شاهد على هذا، بل إن جميع مؤلفاته تعطينا دلالة واضحة على هذه الروح الإسلامية الخالصة من شوائب البدع والانحرافات، ولا غرو فى هذا ولا عجب إذا عرفنا أنه تتلمذ لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ فنهل من معين علمه وتأثر به فى الخُلق والدين واستقلال الشخصية وفى صفاء العقيدة وسلامتها، فحيث كان شيخه له الفضل الأكبر بين علماء الإسلام فى إيضاح عقيدة السلف والتمسك بها، والذب عنها، والذود عن حياضها، والرد على طوائف البدع والضلالات والزيغ والانحرافات، والملحدين والزنادقة، وغيرهم من الفرق الضالة، حيث كان شيخه بهذه المثابة، فقد جاء متتبعا لآثاره، مترسما لخطاه فى ذلك كله فوضح طريقة السلف، وذب عنها، ورد على مخالفيها، فكان خير خلف لخير سلف ـ رحمهما الله ـ شيخا وتلميذا، وأسكنهما بحبوح جنته آمين.

مذهبه الفقهى وشخصيته المستقلة

لم يكن الحافظ ابن كثير من العلماء الأتباع المقلدين، وإنما كان ذا شخصية مستقلة، ومن العلماء المجتهدين الذين ينظرون فى الأدلة ويختارون من الأقوال ما ترجحه تلك الأدلة، فهو ـ رحمه الله ـ بما أوتى من علم جم، وثقافة واسعة، واطلاع عظيم فى شتى علوم الشريعة يدور مع الدليل حيث كان.

كما كانت طريقة شيخية شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم فهو لا يتعصب لمذهب من المذاهب أو غيره، فمع أنه شافعى المذهب نراه كما سبق يفتى فى مسألة الطلاق الثلاث بلفظ واحد، كما هو رأى شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمهما الله ـ وقد امتحن الحافظ ابن كثير بسبب ذلك وأوذى، فثبت على قوله وصبر على ما يلقى فى سبيل الله. وهو وإن كان يعطى مذهب الشافعى اهتماما كبيرا فى تفسيره، فقد اهتم بغيره من المذاهب وخصوصا المذاهب الثلاثة، وليس أدل على إنصافه لجميع المذاهب وعدم تعصبه من كونه قد يخالف الشافعى، ويرجح قول غيره، كما يبدو ذلك فى تفسيره.

كرم خلقه وعدله

لقد كان الحافظ ابن كثير على مكانة عالية من سمو الأخلاق وجليل الصفات، وكان موضع التقدير والإعجاب عند شيوخه وتلاميذه وغيرهم من خاصة الناس وعامتهم. والذى يقرأ فى مؤلفاته ويطلع على علاقاته مع معاصريه يجد أكبر شاهد على هذا، ولست فى معرض الكلام عن تلك الصفات، فذلك مما قد يطول، وإنما سأذكر بعض الشواهد التى تدل على كرم أخلاقه وانصافه وعدله.

فمن ذلك موقفه من المحنة التى لحقت قاضى القضاة السبكى، مع علمه ومعرفته بما كان بين شيخه ابن تيمية وتقى الدين السبكى، حيث كتب عليه فتوى لتغريمه، وداروا بها على المفتين، قال ابن كثير: «وسئلت فى الافتاء عليها فامتنعت لما فيها من التشويش على الحكام ثم قال: وكانوا له فى نية عجيبة ففرج الله عنه بطلبه إلى الديار المصرية».

وقال أيضا : «وعندما عقد مجلس بسبب ما رمى به قاضى القضاة السبكى وكتب فيه

محضران أحدهما له والآخر عليه»، وفى المحضر الذى كتب له. قال ابن كثير: «فيه خطوط جماعات من المذاهب بالثناء عليه، وفيه خطى بأنى مارأيت فيه إلا خيرا». كما ذكر أيضا: أنه ممن أشار بالصلح بين الشيخ السبكى وخصمائه.

ومما يدل على كرم خلقه أيضا وانصافه: لزومه العدل والحق حتى مع غير المسلمين، قال فى تاريخه «البداية والنهاية» فى أحداث سنة ٧٦٧ هـ بعدما ذكر غدر الأفرنج بمدينة الاسكندرية، وما عاثوه فيها من الفساد:

«وجاء المرسوم الشريف من الديار المصرية إلى نائب السلطنة بمسك النصارى من الشام جملة واحدة، وأن يأخذ منهم ربع أموالهم، لعمارة ما خرب من الاسكندرية ولعمارة مراكب تغزو الأفرنج، فأهانوا النصارى وطلبوا من بيوتهم، وخافوا أن يقتلوا، ولم يفهموا ما يراد بهم، فهربوا كل مهرب، ولم تكن هذه الحركة شرعية، ولا يجوز اعتمادها شرعا» ثم قال: «وقد طلبت يوم السبت ـ السادس عشر من صفر ـ الى الميدان الأخضر، للاجتماع بنائب السلطنة، وكان اجتماعنا بعد العصر يومئذ، بعد الفراغ من لعب الكرة، فرأيت منه أُنسا كبيرا، ورأيته كامل الفهم حسن العبارة، كريم المجالسة، فذكرت له: أن هذا لا يجوز اعتماده فى النصارى، فقال: أن بعض فقهاء مصر أفتى للأمير بذلك، فقلت له: هذا مما لا يسوغ شرعا، ولا يجوز لأحد أن يفتى بهذا، ومتى كانوا باقين على الذمة يؤدون الجزية ملتزمين بالذلة والصغار، وأحكام الملة قائمة، لا يجوز أن يؤخذ منهم الدرهم الواحد الفرد فوق ما يبذلونه من الجزية، ومثل هذا لا يخفى على الأمير..»

قال الأستاذ أحمد شاكر تعليقا على هذا الموقف العادل للحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ «فانظر إلى هذا الإمام العظيم الذى يقف عند حدود الشريعة المطهرة، يقيم ميزان العدل الصحيح كما عرفه من دينه الحنيف، ويألم ويسترجع لما ناب النصارى من مصادرة ظالمة، من أمراء طغاة جائرين، كما ألم واسترجع من قبل لما أصاب المسلمين من غدر النصارى وبغيهم، وشتان هذا وذاك، ولكنه لا يرضى إلا أن يقيم ميزان العدل، فكان هذا العقل المستقل العظيم الثابت على الحق، والذى لا تغلبه العواطف والأهواء مما يجعل للرجل منزلة عند الناس كبيرة يثق به أنصاره وموافقوه ومخالفوه، بل جعله موضع الثقة والاستشارة عند الذميين، حتى

ينشده بعض رؤسائهم فى أخص شئونهم الكنيسية» . ثم ذكر استشارة البترك بشارة الملقب ميخائيل لابن كثير فى بعض عقائد النصارى.

مكانته العلمية وثناء العلماء عليه

لقد احتل الحافظ ابن كثير منزلة عالية فى الحديث وعلومه، والتفسير والتاريخ والفقه والفتوى وغير ذلك، وكانت له المكانة الرفيعة فى حياته بين تلاميذه ومعاصريه، وقد خلد هذه القيمة بما تركه للمكتبة الإسلامية من مؤلفات حملت ذكره خالدا بعد وفاته.

ومما يدل على شهرته، وقيمته العلمية، وانتشار مؤلفاته واشتهارها فى حياته، ما ذكره فى تاريخه «البداية والنهاية»: «ان شابا أعجمياً حضر من بلاد تبريز وخراسان يزعم أنه يحفظ البخارى ومسلما وجامع المسانيد والكشاف للزمخشرى وغير ذلك، وأنه امتحنه بقراءة مجالس من البخارى وغيره بحضرة ـ قاضى القضاة ـ وجماعة من الفضلاء، ثم قال: وفرح بكتابتى له بالسماع على الاجازة، وقال: أنا ما خرجت من بلادى إلا إلى القصد إليك، وأن تجيزنى، وذكرك فى بلادنا مشهور.

فهذا يدل على اهتمام العلماء وطلاب العلم بمؤلفاته فى حياته وقبل إتمام تأليفها، لأن الظاهر حسب ما وصل إلينا من أجزاء هذا الكتاب «جامع المسانيد» انه لم يتم تأليفه، ومع ذلك وصل ما نسخ من هذا الكتاب إلى أقصى الشرق فى تبريز وخراسان.

وقد أثنى عليه كثير من العلماء .

قال فيه ابن حبيب «إمام ذوى التسبيح والتهليل، وزعيم أرباب التأويل، سمع وجمع وصنف، وأطرب الأسماع بالفتوى وشنف، وحدث وأفاد وطارت فتاويه إلى البلاد، واشتهر بالضبط والتحرير، وانتهت إليه رياسة العلم فى التاريخ والحديث والتفسير».

وقال شيخه الذهبى فى «تذكرة الحفاظ» : «سمعت مع الفقيه المفتى المحدث ذى الفضائل عماد الدين اسماعيل بن عمر بن كثير البصروى الشافعى له عناية بالرجال والمتون والفقه، خرج وناظر وصنف وفسر وتقدم».

وقال فى : «المعجم المختص» : «الإمام المفتى المحدث البارع، فقيه متفنن، محدث متقن، مفسر نقال، وله تصانيف مفيدة».

وقال تلميذه الحافظ أبوالمحاسن الحسينى: «أفتى ودرس وناظر وبرع فى الفقه والتفسير والنحو، وأمعن النظر فى الرجال والعلل».

وقال تلميذه شهاب الدين بن حجى : «كان أحفظ من أدركناه لمتون الأحاديث، وأعرفهم بتخريجها ورجالها وصحيحها وسقيمها، وكان أقرانه وشيوخه يعترفون له بذلك، وكان يستحضر كثيرا فى التفسير والتاريخ، قليل النسيان، وكان فقيها جيد الفهم، صحيح الذهن، يحفظ «التنبيه» إلى آخر وقت، ويشارك فى العربية مشاركة جيدة، وينظم الشعر. وما أعرف أنى اجتمعت به على كثرة ترددى إليه، إلا استفدت منه ولازمته ست سنين».

وقال الحافظ العلامة ابن ناصر الدين المتوفى سنة ٨٤٢ هـ :
«الشيخ العلامة الحافظ عماد الدين، ثقة المحدثين، عمدة المؤرخين علم المفسرين».

وقال ابن حجر: «ولازم المزى وقرأ عليه تهذيب الكمال وصاهره على ابنته، وأخذ عن ابن تيمية ففتن بحبه وامتحن بسببه، وكان كثير الاستحضار حسن المفاكهة، سارت تصانيفه فى البلاد فى حياته وانتفع بها الناس بعد وفاته ـ ثم قال: ولم يكن على طريقة المحدثين فى تحصيل العوالى، وتمييز العالى من النازل، ونحو ذلك من فنونهم، وإنما هو من محدثى الفقهاء، وقد اختصر مع ذلك كتاب ابن الصلاح وله فيه فوائد».

وقال السيوطى فى «طبقات الحفاظ» : له التفسير الذى لم يؤلف على نمطه مثله»، كما نقل السيوطى أيضا فى الطبقات قول الحافظ ابن حجر انه لم يكن على طريقة المحدثين فى تحصيل العوالى وتمييز العالى من النازل.. الخ، ثم تعقبه بقوله: «العمدة فى علم الحديث معرفة صحيح الحديث وسقيمه وعلله، واختلاف طرقه ورجاله جرحا وتعديلا، أما العالى والنازل ونحو ذلك فهو من الفضلات، لا من الأصول المهمة» وهذا حق وصدق

وقال العلامة العينى : «كان قدوة العلماء والحفاظ ، وعمدة أهل المعانى والألفاظ ، وسمع وجمع وصنف ودرس وحدث وألف وكان له اطلاع عظيم فى الحديث والتفسير والتاريخ واشتهر بالضبط والتحرير وانتهى اليه علم التاريخ والحديث والتفسير، وله مصنفات عديدة مفيدة».

وقال ابن العماد الحنبلى المتوفى سنة ١٠٨٩ هـ : «كان كثير الاستحضار قليل النسيان، جيد الفهم، يشارك فى العربية، وينظم نظما وسطا، لا يذكر له إلا القليل من النظم مثل قوله:

تمـر بنـا الأيام تتـرى وانما نسـاق إلى الآجـال والعـين تنظر
فلا عائد ذاك الشباب الذى مضـى ولا زائـل هذا المشيب المكدر»

وقال الشوكانى فى «البدر الطالع» فى ترجمة الحافظ ابن كثير : «عماد الدين اسماعيل بن عمر، برع فى الفقه والتفسير والنحو، وأمعن النظر فى الرجال والعلل، وأفتى ودرس، وله تصانيف مفيدة».

وقال الشيخ أحمد شاكر بعد ما ذكر ما جاء فى «البداية والنهاية» : من أن البترك بشارة الملقب ميخائيل استشار الحافظ ابن كثير فى بعض عقائد طوائف النصارى الثلاث الملكية، واليعقوبية، والنسطورية.

قال : «ولا يعجبن القارئ من أن يكون ابن كثير أعلم بعقائد طوائف النصارى من أحد بتاركتهم ـ أستغفر الله ـ بل انه يذكر عن ذلك البترك ميخائيل الذى تكلم معه أنه يفهم بعض الشئ، لأن ابن كثير من أوسع العلماء اطلاعا على أقوال أهل الملل والنحل، وخاصة مذاهب المسيحيين، كما يدل عليه كلامه فى مواضع كثيرة من التفسير والتاريخ، بل يكفى فى الدلالة على سعة اطلاعه فى ذلك أن يكون تلميذ شيخ الإسلام ابن تيمية، الذى ألف موسوعته النفيسة فى ذلك «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» وهو مطبوع معروف».

وقال أيضا : «ولم يكن ممن ينخدع فى الفتاوى التى ظاهرها قصد الاستفتاء، ووراءها ألاعيب سياسية أو أغراض شخصية غير سليمة، وإن كان المستفتى من الأمراء، وممن يخشى بأسه «ثم ذكر ما جاء فى تاريخه البداية والنهاية فى حوادث سنة ٧٦٢ هـ من قوله:
«وجائتنى فتيا صورتها: ماتقول السادة العلماء فى ملك اشترى غلاما فأحسن إليه وأعطاه وقدمه، ثم انه وثب على سيده فقتله، وأخذ ماله ومنع ورثته منه، وتصرف فى المملكة، وأرسل إلى بعض نواب البلاد ليقدم عليه ليقتله، فهل له الامتناع منه؟ وهل إذا قاتل دون نفسه وماله حتى يقتل يكون شهيدا؟ وهل يثاب الساعى فى خلاص حق ورثة الملك المقتول من القصاص والمال؟ أفتونا مأجورين «ثم قال أحمد شاكر تعقيبا على هذا: «فهذا استفتاء صيغ فى صورة توحى بالجواب، وباطنه أن ذاك الأمير السائل يريد أن يمتنع على الملك الذى دعاه

للحضور عنده ويريد أن يثير فتنة وقتالا على صاحب الأمر، لعله يصل إلى ما وصل إليه ذاك من الملك، كعادة الأمراء من المماليك فى ذلك العهد، ولكن ابن كثير يجيبه جوابا حكيما يكشف عن بعض مقصده، ويضمن جوابه النصيحة الواجبة فى مثل هذه الحال فيقول:

فقلت للذى جاءنى بها من جهة الأمير : إن كان مراده خلاص ذمته فيما بينه وبين الله تعالى، فهو أعلم بنيته فى الذى يقصده، أو لا يسعى فى تحصيل حق معين، إذا ترتبت على ذلك مفسدة راجحة فى ذلك، فيؤخر الطلب إلى وقت إمكانه بطريقة، وإن كان مراده بهذا الاستفتاء أن يتقوى بها فى جمع الدولة والأمراء عليه فلابد أن يكتب عليها كبار القضاة والمشايخ أولا ثم بعد ذلك بقية المفتين بطريقة».

وفاتـــه

كان ـ رحمه الله ـ قد كف بصره فى آخر عمره، ثم مات يوم الخميس منتصف شعبان، وقيل يوم الخميس السادس والعشرين منه سنة ٧٧٤ هـ ـ عن أربع وسبعين سنة.

قال ابن ناصر الدين : وكانت له جنازة حافلة مشهورة، ودفن بوصية منه فى تربة شيخ الإسلام ابن تيمية، بمقبرة الصوفية خارج باب النصر من دمشق.

ولما مات رثاه بعض طلبته بقوله :

لفقـــدك طلاب العلـــوم تأسفوا وجـــادوا بدمـــع لا يبيد غزير
ولـــو مزجـــوا ماء المدامـــع بالدماء لكان قليلا فيك ياابـــن كثير

آثاره العلمية

لقد خلف الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ للمكتبة الإسلامية ثروة علمية كبيرة فى شتى فنون المعرفة من تفسير وحديث وفقه وتاريخ وغير ذلك. غير أن هذه الثروة التى خلفها لم تصل كلها إلى المكتبة الإسلامية، بل أنه لم يصل إلا بعض منها، أما البعض الآخر، وهو القسم الأكبر منها فلم يهتد إلى مكانه، وحرمت منه المكتبة الإسلامية، كما أن من بين القسم الموجود مؤلفات لازالت مخطوطة، وبحاجة إلى طباعة بعد دراسة وتحقيق، وسأذكر ما توصلت

إليه من مؤلفاته وآثاره، وغالبها مفقود كما أشرت، إنما الذى وصل إلينا فقط هو نسبة هذه المؤلفات إليه، إما عن طريق المؤرخين الذين ترجموا للحافظ ـ رحمه الله ـ وإما عن طريق إشارته فى كتبه الموجودة إلى هذه المؤلفات، وقد أشار فى تفسيره للقرآن العظيم إلى أغلبها، وفيما يلى بيان هذه المؤلفات:

١ ـ تفسير القرآن العظيم. وهذا تفسير غنى عن التعريف، وهو من أفضل التفاسير وأهمها بل وأصحها، يحتل المرتبة الثانية إن لم تكن الأولى بين كتب التفسير. فسر فيه الحافظ ابن كثير القرآن بالقرآن أولاً ماوجد إلى ذلك سبيلا، ثم بالسنة الصحيحة المروية عن المصطفى صلى الله عليه وسلم، ثم بالمروى عن الصحابة رضى الله عنهم، ثم بأقوال التابعين. وبمفاهيم لغة العرب. وهذه بحق تعتبر أحسن الطرق فى تفسير القرآن الكريم.

وسأفرد الكلام عن هذا التفسير، وطبعاته ومختصراته، ومنهج مؤلفه فيه، ومميزاته، وأثره فيمن بعده ـ فى العدد القادم من هذه المجلة القيمة إن شاء الله.

٢ ـ التاريخ الكبير المسمى : «البداية والنهاية» ويعتبر من أعظم المراجع التاريخية، ومن أوثقها، قال العينى: «وله التاريخ الذى فاق على سائر التواريخ، وهو عمدة تاريخى هذا الذى جمعته وزدت عليه من غيره» وقال ابن تغرى بردى: «وهو فى غاية الجودة».

وقد قسمه الحافظ ابن كثير إلى ثلاثة أقسام : الأول فى بدء الخليقة وقصص الأنبياء، وأخبار الأمم الماضية، وأخبار العرب، وأحداث الجاهلية قبل الإسلام، وقد اعتمد فى هذا القسم على ما جاء فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وعلى من تقدمه من ثقاة المؤرخين، كالطبرى والواقدى، وغيرهما من المؤرخين وأصحاب السير، مع مناقشة أسانيد الأحاديث والآثار التى يذكرها وبيان وجه الدلالة منها.

والقسم الثانى : فيه ذكر أخبار الدولة الإسلامية، ابتداء بسيرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأيامه، وغزواته وجميع الوقائع فى عهده ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى أن لحق بالرفيق الأعلى، ثم ذكر أخبار الخلافة الراشدة وأيامها ووقائعها، ثم أخبار الدولة الأموية، فالدولة العباسية وما بعدها إلى سقوط بغداد فى أيدى التتار سنة ٦٥٦ هـ ، ثم ما بعد ذلك من أخبار

المماليك وغيرهم، إلى ما قبل وفاته ـ رحمه الله ـ بست سنوات تقريبا وذلك سنة ٧٦٨ هـ ، وهذا القسم يمكن أن نسميه تاريخ الإسلام.

أما القسم الثالث : وهو المسمى بالنهاية، فقد جمع فيه ما ورد من الأخبار فى الفتن والملاحم، وأشراط الساعة وأحوال القيامة والآخرة، وصفة الجنة والنار.

وقد رسم طريقته فى هذا الكتاب فى مقدمته، كما ذكر فيه حكم رواية الاسرائيليات، وبين أنه لا ينقل فى هذا التاريخ إلا ما أذن به الشرع مما كان موافقا لشرعنا، أو كان من القسم الذى لا يصدق ولا يكذب، وهذا التاريخ مطبوع ومتداول فى أربعة عشر مجلدا، وهو يحيل فى هذا التاريخ إلى كتابه فى التفسير، كما يحيل فى التفسير إلى هذا التاريخ، فلا أدرى أقام بتأليفهما معا؟ أم أنه يحيل على ما كان ينوى أن يقوم به؟ وهو ما جاء متأخرا منهما سواء التاريخ أو التفسير، وقد تداولت المطابع طبعه عدة مرات، فقد طبع بمطبعة كردستان العالمية سنة ١٣٤٨ هـ ، كما قامت مطبعة السعادة بطبعه سنة ١٣٥١ هـ ـ ١٩٣٢م بتصحيح عبدالحفيظ سعد عطية القاهرة .

وقامت مكتبة النصر بالرياض بنشره سنة ١٩٦٦م، ونشرته دار الكتب الحديثة سنة ١٣٨٩ هـ ـ ١٩٦٩م بتحقيق محمد الزينى القاهرة، كما قامت مكتبة الفلاح بالرياض بنشره بطبعة جديدة ومنقحة كاملة تحقيق ومراجعة وتعليق وتصحيح محمد عبدالعزيز النجار، طبع مطبعة الفجالة الجديدة. وقد اقتصرت هذه الطبعات على ما يسمى (بالبداية) من هذا التاريخ، أما (النهاية) وهى فى الفتن، والملاحم، فلم تنل حظا من هذه الطبعات التى تناولت (البداية)، وقد قام بطبعها أخيرا الشيخ طه الزينى فى مجلدين وعلق عليها.

ومما ينبغى التنبيه عليه أن الشيخ محمد فهيم أبو عبية قام بنشرها وعلق عليها تعليقات غير سديدة، فيها رد للأحاديث الثابتة، وتأويل لها وإسقاط لبعض النصوص.

٣ ـ اختصار علوم الحديث : وقد اختصر فيه مقدمة ابن الصلاح فى علوم الحديث، وقد أضاف إليه فوائد كثيرة، ورتبه. وقد قام الشيخ محمد عبدالرزاق حمزة بتصحيح هذا الكتاب، وطبع أول مرة بمكة المكرمة بالمطبعة الماجدية سنة ١٣٥٣ هـ ، ثم قام الأستاذ أحمد شاكر ـ رحمه الله ـ بشرحه شرحا متوسطا، وطبع فى مصر فى شهر ذى القعدة سنة ١٣٥٥ هـ ، ثم

أعاد الأستاذ طبعته مرة أخرى، مع زيادات وتنقيح فى الشرح، فى شهر ذى القعدة سنة ١٣٧٠ هـ باسم «الباعث الحثيث» شرح اختصار علوم الحديث. وهذا الكتاب متداول ومشهور.

٤ ـ السيرة النبوية «مطولة». أشارت الكتب التى ترجمت للحافظ ابن كثير وذكرت مؤلفاته إلى أن من ضمن هذه المؤلفات كتابان فى السيرة النبوية وهما: السيرة النبوية مطولة، والسيرة مختصرة.

وقد أشار إلى كتاب السيرة المطولة فى تفسير سورة الجن، كما أشار إلى كتاب السيرة مختصرا وبسيطاً فى سورة الأحزاب، فى ذكر قصة بنى قريظة، وتارة يشير إلى كتاب السيرة مطلقا.

هذا وقد قام الأستاذ مصطفى عبدالواحد باستخلاص السيرة النبوية من التاريخ الكبير «البداية والنهاية» وقام بتحقيقها وطبعها على حدة، فى أربعة مجلدات بالقاهرة بمطبعة عيسى البابى الحلبى سنة ١٩٦٦م.

كما قام باستخلاص شمائل الرسول، وحققها وطبعها فى مجلد واحد بالقاهرة بمطبعة عيسى البابى الحلبى سنة ١٣٨٦ هـ/١٩٦٧م.

وقد قال فى مقدمة كتاب قصص الأنبياء، الذى استخلصه أيضا فى مجلدين من هذا التاريخ: «تبينت من كلام ابن كثير فى تفسيره، ومن كتب التراجم، أنه كان لابن كثير سيرة مطولة، ورجحت أنه ضمنها فى كتابه «البداية والنهاية» الذى ألفه فى آخر عمره».

٥ ـ أما كتاب السيرة مختصرة، فلعله ما يوجد مطبوعا باسم «الفصول فى اختصار سيرة الرسول»، وقد طبع فى القاهرة بمطبعة العلوم بمصر سنة ١٣٥٨ هـ ، كما طبع سنة ١٣٨٥ هـ بتصحيح الشيخ محمد عبدالرازق حمزة باسم الطبعة الأولى وقد جاء فى مقدمته قوله: «وهى مشتملة على ذكر نسب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسيرته وأعلامه، وذكر أيام الإسلام بعده إلى يومنا هذا، مما يمس حاجة ذوى الأرب إليه، على سبيل الاقتصاد ـ إن شاء الله تعالى

والكتاب يعتبر ملخصا لسيرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى ذكر نسبه ومولده،

ونزول الوحى عليه، وحياته وأيامه، والأحداث التى لاقاها فى طريق دعوته، وخصائصه وصفاته وما كان عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من حسن المعاملة لربه، وأصحابه وغيرهم، وذكر بعض غزواته وحروبه، إلى آخر حياته ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم مرضه ووفاته، وبعض من أحكام زوجاته، قبل وفاته وبعدها... الكتاب يقع فى «١٧٠» صفحة من القطع المتوسط.

وكل ما جاء فى هذا المطبوع هو مما يتعلق بسيرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقط، دون زيادة على ذلك كما أشار الحافظ بالمقدمة إلى أنه سيذكر فيه أيضا أيام الإسلام إلى يومه، فإما أن يكون الحافظ اقتصر على هذا القدر، وإما أنه لم يصل إلينا إلا بعض هذا الكتاب، وهو القسم الأول منه، فى سيرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

٦ ـ «جامع المسانيد والسنن الهادى لأقوم سنن» وقد جمع فيه الحافظ ابن كثير بين مسند الإمام أحمد والبزار وأبى يعلى الموصلى والطبرانى مع الكتب الستة، وقد ذكر الحافظ ـ رحمه الله ـ طريقته فى مقدمة هذا الكتاب فقال: «جمعت فيه من كتب الإسلام المعتمدة، فى الأحاديث الواردة عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن ذلك الكتب الستة، وهى الصحيحان البخارى ومسلم، والسنن الأربع لأبى داوود، والترمذى، والنسائى، وابن ماجة، ومن ذلك مسند الإمام أحمد، ومسند أبى بكر البزار، ومسند الحافظ أبى يعلى الموصلى، والمعجم الكبير للطبرانى ـ رحمهم الله ـ فهذه عشرة كاملة، أذكر فى كتابى هذا مجموع ما فى هذه العشرة وربما زدت عليها من غيرها، وقل ما يخرج عنها من الأحاديث مما يحتاج إليه فى الدين، وهذه الكتب العشرة تشتمل على أربا من مائة ألف حديث بالمكررة، وفيها الصحيح والحسن والضعيف والموضوع». وبعد هذا أخذ فى الثناء على الإمام البخارى ـ ثم قال: «ولكن قل ما يدخل فى مصنفه من هذه الأحاديث، لما شرطه فى صحيحه من الشرط الذى ضاق، وتوسع مسلم بن الحجاج بعده فى الشرط، وبالغ فى المناظرة والحجاج، ومع هذا بقى عليه أحاديث أخر لم يطلع عليها وهى على شرطه، كما ستراها فى هذا الكتاب ـ إن شاء الله تعالى» ـ ثم قال: «وقد وضعت كل حديث مما يتعلق بالأحكام والتفسير والتاريخ فى كتبنا الثلاثة، ولله الحمد والمنة، وما فيه من وهن شديد بينته، وموضع تحرير ذلك، وتقريره، والتفسير عنه فى كتاب الأحكام الكبير، وسميت كتابى هذا: «جامع المسانيد والسنن الهادى لأقوم سنن» وهو المسند الكبير وشرطى فيه: أن أترجم كل صحابى له رواية عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مرتب على

حروف المعجم، وأورد له جميع ما وقع فى الكتب، وما تيسر لى من غيرها، وبالله أستعين، وعليه أتوكل، وإليه أنيب».

والذى يظهر أن الحافظ ـ رحمه الله ـ لم يتم هذا الكتاب والموجود منه مازال مخطوطا، يوجد منه فى دار الكتب المصرية سبعة مجلدات تحت رقم «١٨٤» وفى مكتبة الرياض السعودية صورة من هذه المجلدات، تصوير دار الكتب المصرية لعام ١٣٦٦ هـ عن المخطوط رقم «١٨٤» رقم التصوير «١١١» من ٣٢٣/ مقاس ١٩ × ٢٦» والموجود فى المكتبة السعودية سبعة أجزاء فى أربعة عشر مجلدا، برقم ١٠٢ إلى ٨٦/١١٥ وينقصها المجلد الثامن مع وجود رقم له. كما يوجد فى المكتبة المركزية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية الجزء الأول منه فى ثلاثة مجلدات برقم «٤١٤».

٧ ـ «التكميل فى معرفة الثقاة والضعفاء والمجاهيل» جمع فيه «تهذيب الكمال» للمزى، «وميزان الاعتدال»، للذهبى مع زيادات مفيدة فى الجرح والتعديل، وقد أشار إليه فى كتابه «جامع المسانيد والسنن» وأنه فى عدة عشرة مجلدات قال: «وجعلته كالمقدمة لكتابى هذا» يشير إلى «جامع المسانيد».

قال الحسينى فى ذيل تذكرة الحفاظ : «وهو فى خمسة مجلدات» ويوجد الجزء التاسع منه ـ وهو الأخير ـ فى مجلدين كبيرين بدار الكتب المصرية تحت رقم (٢٤٢٢٧ ب).

٨ ـ «مسند الشيخين» : أبى بكر وعمر ـ وفيه ـ كما قال ابن كثير فى «السيرة النبوية» : «ذكر كيفية إسلام أبى بكر، وأورد فضائله وشمائله، وأتبع ذلك بسيرة الفاروق ـ رضى الله عنه ـ وأورد ما رواه كل منهما عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الأحاديث وما رُوى عنه من الآثار، والأحكام والفتاوى، فبلغ ذلك ثلاثة مجلدات ولله الحمد والمنة».

يشير إليه فى التفسير، تارة إلى مسند أبى بكر، وتارة إلى سيرة عمر، وتارة إلى مسند الشيخين أبى بكر وعمر.

٩ ـ «الاجتهاد فى طلب الجهاد» : وقد جاء فى مقدمة هذا الكتاب : أنه كتبه تلبية لأمر الوالى نائب السلطان فى الشام المحروسة. ذكر فى أوله عددا من الآيات القرآنية، حول موضوع الجهاد والقتال فى سبيل الله، ثم أتبع ذلك بذكر عدة من الأحاديث فى الجهاد والمرابطة فى

سبيل الله، ثم عقب ذلك بفصل ذكر فيه هجوم الافرنج على الاسكندرية سنة ٧٦٧ هـ وما عاثوه فيها من الفساد، حتى أقبلت رايات الإسلام، وفر جيشهم هاربا، ثم انتقل إلى ذكر طروقهم لطرابلس أيضا سنة ٧٦٩ هـ وافسادهم فيها، إلى أن أخرجهم منها جيش المسلمين، فولوا هاربين وخرجوا منها صاغرين، ثم عقد فصلا آخر ذكر فيه منازلتهم لمدينة «إياس» وما وقع بينهم وبين المسلمين من مناوشات انتهت بانتصار المسلمين عليهم، ورجوعهم خائبين خاسرين، ثم عقد فصلا ثالثا فى ذكر بعض الوقائع الإسلامية فى زمن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ والخلفاء الراشدين، والدولة الأموية، والفاطمية، والأيوبية، والمماليك البحرية، وكان هدفه فى ذلك تحريك همم المسلمين للتضحية والإقدام فى الدفاع عن الإسلام، ثم ذكر أن معظم قصد الافرنج أخذ بيت المقدس من أيدى المسلمين، وأنه لا سبيل لهم إلى ذلك.

هذا الكتاب مطبوع، يقع فى «٢٣» صفحة من القطع المتوسط. نشرته للمرة الأولى جمعية النشر والتأليف الأزهرية بالقاهرة لعام ١٣٤٧ هـ.

١٠ ـ «طبقات الشافعية» فى التراجم ومعه كتاب «النفيس» فى مناقب الإمام محمد بن ادريس الشافعى.

١١ ـ «اختصار كتاب المدخل إلى كتاب السنن» للبيهقى ذكره فى مقدمة اختصار علوم الحديث.

١٢ ـ كتاب «المقدمات» ولعله فى المصطلح ذكره فى التفسير وفى اختصار مقدمة ابن الصلاح وأحال عليه.

١٣ ـ «ارشاد الفقيه إلى معرفة أدلة التنبيه»، فى فروع الشافعية، وهو مخطوط بتركيا، فى مكتبة فيض الله تحت رقم ٧٨٣ وصورة منها بالجامعة العربية بالقاهرة.

١٤ ـ «إتحاف الطالب بمعرفة أحاديث ـ مختصر ابن الحاجب» فى الأصول.

١٥ ـ «شرح صحيح البخارى» شرع فيه ولم يكمله كما ذكر ذلك ابن حجر. وقد أشار وأحال إليه مرارا فى تفسيره، وقد وصل فيه إلى كتاب العلم حسب اشاراته فى التفسير.

١٦ ـ «كتاب الأحكام الكبير» : لم يكمله وقد وصل فيه إلى الحج، أشار إليه فى مواضع كثيرة فى تفسيره، ويؤخذ من كلامه فى الجزء الأول من التفسير ص ٥٤٩ أنه ألفه بعد التفسير أو معه، حيث قال: «ولنحرره فى كتاب الأحكام الكبير ـ إن شاء الله وبه الثقة» كما أشار إليه فى اختصار علوم الحديث.

١٧ ـ «الآداب والأحكام المتعلقة بدخول الحمام» : وهو رسالة صغيرة، وموضوعه أحكام دخول الحمام، وأقوال العلماء فى ذلك، والأحاديث والآثار الواردة فى ذلك.

وقد قسمه الى فصول : الفصل الأول فيما تقدم، والفصل الثانى فى تحريم التبرج وابداء النساء لزينتهن، والفصل الثالث فى تورع بعض العلماء عن دخول الحمام.
الى غير ذلك من الفصول .

١٨ ـ «مولد الرسول صلى الله عليه وسلم» مطبوع بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد، بيروت دار الكتاب الجديد ١٩٧٧م، وقد ذكر ابن كثير فى مقدمته: أنه ألف هذا الكتاب برسم أحد المؤذنين فى الجامع المظفر بدمشق، وقد أوضح ابن كثير ما سيذكره فى هذا الكتاب حيث قال: فهذا ذكر شئ من ذكر الأحاديث والآثار المتعلقة بمولد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المنقولة المقبولة عند الحفاظ المتقنين، والأئمة الناقدين». هذا وقد تناول فيه: مولد الرسول ونسبه، والعلامات التى ظهرت أثناء حمله، كما تكلم عن حفر بئر زمزم، وعن نذر عبدالمطلب ذبح ابنه، وصفة مولده ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأسمائه ورضاعه وصفاته وشمائله وأخلاقه وغير ذلك، يقع الكتاب فى «٤٥» صفحة تقريبا.

١٩ ـ شرح قطعة من «التنبيه» للإمام أبى اسحاق الشيرازى .

٢٠ ـ «كتاب فضائل القرآن» طبع بمصر سنة ١٣٤٧ هـ أشرف على تصحيحه وعلق عليه بعض الفوائد السيد محمد رشيد رضا، وهو الذى ألحقه فى التفسير، عندما قام بطبعه مع تفسير البغوى، وألحق كتاب الفضائل بالمجلد التاسع الأخير منه، واعتمدت ذلك المطابع فيما بعد، فأصبح ذيلا للتفسير.

وقد كان جعله بعد التفسير هو هدف الحافظ ابن كثير، حينما وضعه اقتداء بالإمام البخارى، فى جعله فضائل القرآن بعد التفسير، وفى ذلك يقول الحافظ ابن كثير: «ذكر

البخارى ـ رحمه الله ـ كتاب فضائل القرآن بعد كتاب التفسير، لأن التفسير أهم فلهذا بدأبه، فجرينا على منواله وسننه مقتدين به».

وقد ذكر الحافظ فى كتابه هذا ما ورد فى كتاب البخارى «فضائل القرآن» من الأحاديث والآثار سوى أحاديث فضائل السور فقد ذكرها عند سورها فى التفسير، ولم يذكرها فى كتابه هذا.

وقد أضاف بعض الزوائد على ماجاء فى كتاب البخارى، وجعلها فى آخر الكتاب. وقد اهتم بتخريج الأحاديث، وبيان مناسبة الحديث للباب الذى ذكر فيه، وبيان معناه مع الاستشهاد على ذلك بالآيات والأحاديث المناسبة وبيان ما يؤخذ منه من فوائد متناً وسندا.

وهناك له كثير من الأجزاء والرسائل، غالبها مما أشار إليه فى التفسير وغيره وهى:

١ ـ كتاب الصيام المفرد.
٢ ـ جزء جمعه فى فضل يوم عرفة .
٣ ـ جزء جمعه وأفرده فى حكم التسمية وحكم تركها والكلام فيها .
٤ ـ جزء جمعه وأفرده فى الأحاديث، فى بناء المساجد واحترامها وتوقيرها وتطييبها وتبخيرها.
٥ ـ جزء جمعه وأفرده فى الأحاديث فى كفارة المجلس .
٦ ـ جزء جمعه وأفرده فى الأحاديث فى أن المطيع من الجن والانس مثاب وأن العاصى معاقب.
٧ ـ لخص مقدمة مفردة جمعها من كتاب «الأشباه» لأبى عمر بن عبدالبرو من كتاب «القصد والأمم، فى معرفة أنساب العرب والعجم» فى الأنساب.
٨ ـ كتاب صفة الجنة .
٩ ـ كتاب «أحاديث الأصول» .
١٠ ـ جزء فى ذكر المهدى المنتظر .
١١ ـ جزء فى رد كتاب أظهره اليهود .
١٢ ـ جزء فى الصلاة الوسطى .
١٣ ـ جزء فى فتح القسطنطينية .
١٤ ـ جزء فى هل يسمى الاخوان أخوة .

١٥ ـ جزء أفرده على حِدَة للكلام على الحديث الوارد فى أن السجل كاتب للنبى ـ صلى الله عليه وسلم.

١٦ ـ جزء فى الأحاديث الواردة فى قتل الكلاب .

١٧ ـ جزء جمعه فى سند الحديث الطويل فى الصور.

وهناك كتب جردت واستخلصت من بعض مؤلفات ابن كثير وهى :

١ ـ «السيرة النبوية» : وقد استخلصها الاستاذ مصطفى عبدالواحد من «البداية والنهاية» وهى فى أربعة مجلدات.

٢ ـ قصص الأنبياء استخلصه أيضا الأستاذ مصطفى عبدالواحد من نفس كتاب «البداية والنهاية» فى مجلدين نشرته دار الكتب الحديثة سنة ١٣٨٨ هـ/١٩٦٨م.

٣ ـ كتاب «شمائل الرسول» فى مجلد واحد، وهو مختصر من السيرة، تحقيق مصطفى عبدالواحد وقد سبقت الاشارة إلى هذه الثلاثة.

٤ ـ «سيرة عمر بن عبدالعزيز» استخرجها الدكتور أحمد الشرباصى .

٥ ـ استشهاد الحسين قرأه وقدم له واستخرجه محمد جميل غازى .

٦ ـ ماورد من الرواية فى «البداية والنهاية» وهو كتاب جمع فيه الحافظ ابن حجر العسقلانى ماوجد من الأحاديث والآثار فى هذا الكتاب، وتوجد منه نسخة خطية بدار الكتب المصرية وصورة منها بجامعة الدول العربية تحت رقم ٧٧١، وهذه الكتب الستة كلها استخلصت واستخرجت من تاريخه الكبير «البداية والنهاية».

٧ ـ كتاب الإسراء والمعراج» من تفسير الحافظ ابن كثير، جرده ورتبه، وأضاف إليه إسماعيل الأنصارى نشر مكتبة الرياض الحديثة سنة ١٣٩٣ هـ .

ومما يلاحظ القارئ عند استعراضه لهذه المؤلفات أن الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ أجاد فى العلوم الإسلامية كلها، من تفسير وحديث وأحكام وتاريخ وأصول وعقائد.

وهذا نتاج حصيلته العلمية التى استفادها من مشاهير العلماء فى عصره كابن تيمية وابن القيم والمزى والذهبى وغيرهم.

لكن غلبة الحديث على ثقافته جعلت أكثر مؤلفاته فى الحديث وعلومه، واننا لنأسف حينا

نبحث عن أكثر هذه المؤلفات فلا نكاد نجدها أو نعثر عليها. إضافة إلى أن أكثر الوجود منها مازال مخطوطا، لاينتفع به، وما طبع منها طبع بصورة غير لائقة، بقصد التجارة والاستغلال، لا المنفعة العلمية.

وإنا لنسأل الله ـ العلى القدير ـ أن يقيض لمؤلفات هذا الإمام العظيم من بين علماء المسلمين من يبحث عنها ويوليها عناية جيدة، تحقيقا وطباعة، لتأخذ مكانها فى المكتبة الإسلامية، كما أنى أدعو الجامعات الإسلامية ومن بينها جامعة الإمام محمد بن سعود إلى الاهتمام بجمع تراث هذا الإمام العظيم، والحفاظ على البقية الباقية منه.

والله أسأل أن يوفقنا ويهدينا إلى سواء السبيل وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

مراجع البحث

١ ـ تفسير القرآن العظيم لابن كثير
٢ ـ البداية والنهاية لابن كُثير
٣ ـ تذكرة الحفاظ للذهبى
٤ ـ ذيل تذكرة الحفاظ للحسينى
٥ ـ الدرر الكامنة
٦ ـ طبقات الحفاظ للسيوطى
٧ ـ شذرات الذهب
٨ ـ إنباء الغمر فى أبناء العمر
٩ ـ الرد الوافر لابن ناصر الدين
١٠ ـ «البدر الطالع» للشوكانى
١١ ـ تاريخ آداب اللغة
١٢ ـ مقدمة عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير لاحمد شاكر.

*****